التفسير اللغوي

اللُّغةُ: فُعْلَةٌ من لَغَوتُ؛ أي: تَكَلَّمْتُ. وأصلها: لُغْوَةٌ، وقيل: لُغَيٌ أو لُغَوٌ ـ على وزنِ فُعَلٌ ـ والهاءُ عوضٌ. وجمعُها: لُغَىً، ولغاتٌ، ولُغُونٌ

واللُّغةُ: اللِّسْنُ والنُّطقُ، يقال: هذه لغتُهم التي يَلْغُونَ بها؛ أي: ينطقون. ولَغْوَى الطَّيرِ: أصواتُها. واختُلفَ في أصلِ اشتقاقِ المادَّةِ، فقيل:

١ ـ أُخذتْ من الْمَيلِ، في قولهم: لَغَا فلانٌ عن الصَّوابِ، إذا مَالَ عنه، قال ابنُ الأعرابيّ (ت:٢٣١) : " واللُّغةُ أُخِذَتْ من هذا ؛ لأنَّ هؤلاءِ تكلَّموا بكلامٍ مالُوا فيه عنْ لغةِ هؤلاءِ الآخرين".

٢ ـ أُخِذَتْ من اللَّهْجِ بالشَّيءِ، قال ابن فارس (ت:٣٩٥):"... لَغَى بالأمرِ: إذا لَهَجَ به، ويقالُ: إنَّ اشتقاقَ اللُّغةِ منه؛ أي: يَلْهَجُ صاحبُها بها" .

٣ ـ وقيل: مصدرُها: اللَّغْوُ، وهو الطَّرْحُ، فالكلامُ لكثرةِ الحاجةِ إليه يُرْمَى به.

وفي الاصطلاح عَرَّفها ابنُ جِنّي (ت:٣٩٢) فقال: «أصواتٌ يُعبِّرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم» .

وقال ابنُ حَزْمٍ (ت:٤٥٦): "ألفاظٌ يُعبَّرُ بها عن المُسَمَّيَاتِ وعن المعاني المرادِ إفهامُها، ولكُلِّ أمةٍ لغتُهم" . وفي تاجِ العروسِ: "هي الكلامُ المصطلحُ عليه بين كُلِّ قبيلٍ".

وهذه التعريفاتُ مُتقاربةٌ في الدلالةِ على اللغةِ اصطلاحاً، وإن اختلفتْ تعبيراتُ المعبّرين عنها.

ويُلاحظُ أنهم جعلوا اللُّغةَ الطريقَ الذي يحصلُ به التَّفاهمُ بين اثنين عن طريقِ النُّطقِ بالألفاظِ؛ أي: أنَّ عمدةَ اللُّغةِ الألفاظُ التي يتداولُها القومُ الذين اصطلحوا عليها، بحيثُ لو حُدِّثوا بغيرِها لم يحصل بينهم تفاهم. اللغويون: هم المشتغلون بجمعِ ألفاظِ العربِ ومعرفةِ دلالتِها واشتقاقِها وتصريفِها، ومعرفةِ أساليبِها في الخطابِ، والاستدلالِ لذلك بلغةِ العربِ من شعرٍ أو نثرٍ.

وبتَتبُّع تراجم اللُّغويّين وفهارس كتبهم، ظهرَ أنهم برزوا في القرنِ الثَّاني الهجريّ، وكانَ ظهورُهم إيذاناً ببروزِ هذا التَّخصُّصِ العلميّ الذي لم يكنْ ينسبُ قبلهم إلى أعلامٍ في جيلِ الصَّحابةِ والتَّابعين، أي أنك لا تكادُ تجدُ في هذين الجيلينِ من وصفَ بأنه فلانٌ اللُّغويُ.

وقدْ قامَ اللُّغويُّونَ منْ أصحابِ هذه الطَّبقةِ ومن بعدهم ـ كأبي عُبَيْدَةَ (ت:٢١٠) والفَرَّاءِ (ت:٢٠٧)، وتلاميذِهم الذين أخذوا عنهم علم اللُّغةِ وتابَعُوهم في ذلك؛ كأبي عُبَيدٍ القَاسِمِ بنِ سَلاَّمٍ (ت:٢٢٤)، وأبي حَاتَمٍ السِّجِسْتَاني (ت:٢٥٥)، ثمَّ تلاميذ هؤلاء؛ كابن قُتَيبَةَ (ت:٢٧٦)، وأبي العباس المُبَرِّدِ (ت:٢٨٥)، وثَعْلَبٍ (ت:٢٩١) ـ بتدوينِ لغةِ العربِ وكانوا عمدةً لمنْ جَاءَ بعدَهم في حكايةَ اللُّغةِ.

قال ابن فارس (ت:٣٩٥): "إنَّ العلمَ بلغةِ العربِ واجبٌ على كُلِّ متعلقٍ منَ العلمِ بالقرآنِ والسُّنَّةِ والفُتْيَا بسببٍ، حتى لا غَنَاءَ بأحدٍ منهم عنه، وذلك أنَّ القرآنَ نازلٌ بلغةِ العربِ، ورسولُ (اللهِ صلّى الله عليه وسلّم) عربيٌ. فَمَنْ أرادَ معرفةَ ما في كتابِ اللهِ جلَّ وعزَّ، وما في سُنَّةِ (رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم) من كلِّ كلمةٍ غريبةٍ أو نَظْمٍ عجيبٍ، لم يجدْ مِن العلمِ باللغةِ بُدًّا".

ويُفهمُ من ذلك أنَّ معرفةَ اللُّغةِ العربيَّةِ شرطٌ في فَهْمِ القرآنِ؛ لأنَّ من أرادَ تفسيرَه، وهو لا يَعْرفُ اللُّغةَ التي نزلَ بها القرآنُ، فإنه لا شَكَّ سيقعُ في الزَّلَلِ، بل سيحرّف الكَلِمَ عن مَواضِعِهِ، كما حصلَ من بعضِ المبتدعةِ الذين حملوا القرآنَ على مصطلحاتٍ أو مدلولاتٍ غيرِ عربيَّةٍ.

وقال ابن قتيبة (ت:٢٧٦): " القرآنُ نزلَ بألفاظِ العربِ ومعانيها، ومذاهبِها في الإيجازِ والاختصارِ، والإطالةِ والتوكيدِ، والإشارةِ إلى الشَّيءِ، وإغماضِ بعضِ المعاني حتى لا يظهرَ عليه إلا اللَّقِنُ ، وإظهارِ بعضِها، وضربِ الأمثالِ لما خَفِيَ"

فالتفسير اللغوي هو بيان معاني القرآن بما ورد في معاني العرب ، ولمَّا كانَ الأمرُ كذلك؛ فإنَّ بيانَ هذا القرآنِ وتفسيرَه لا بُدَّ أنْ يكونَ أحدَ مصادره التي يُفسَّرُ بها هذه اللغةُ التي نزلَ بها. ولا يمكنُ أن يَتَأتَّى تفسيرُه بلغةٍ غيرِها. ومن رامَ غيرَ ذلك وقعَ في الزللِ، وجانبَ الصوابَ.

ومنهج التفسير اللغويّ يقع في مقدِّمة المناهج الّتي تعنى بتفسير القرآن الكريم، وتكمن أهمّيّته في أنَّه مورد اتّفاق بين الطوائف الإسلاميّة في مجمل قبوله من ردِّه، خلافا للمنهج العقليّ في التفسير، وفي قبول مسائله على نحو عام خلافا لمنهج التفسير بالمأثور؛ لذا ظهرت بوادره مبكّرا في تفسير عدد من الصحابة، إلَّا أنّ تفسيراتهم اللغويَّة لم تتعدَّ بيان معاني عدد قليل من الكلمات الغريبة بما يدلُّ عليها في أشعار العرب، ولم تصل إلى مرحلة تأسيس أركان المنهج اللغويّ المختلفة الّتي استقرّت أواخر القرن الثاني للهجرة ومطلع الثالث في كتب معاني القرآن.

فهذا المنهج يعتمد على استخلاص معاني الآيات الكريمة عن طريق اللغة ؛ حيث يرون في النص القرآني إضافة الى كونه نصا دينيا هو نص أدبي ، معجز في لغته وبلاغته وفصاحته .

وقد شكل أصحاب هذا المنهج مدرسة خاصة بهم ، تميزت أبعادها في البحث عن لغة القرآن ، وعن مجازات القرآن ، وعن غريب القرآن ، و عن معاني القرآن ، وعن مفردات القرآن ولعل عبد الله بن عباس هو أول من اعتمد هذا المنهج اللغوي في التفسير .

وقد عني هذا المنهج بالجانب اللغوي، وتمحض لاشتقاق المفردات وجذورها، وشكل الالفاظ وأصولها، فجاء مزيجا بين اللغة والنحو والحجة والصرف والقراءات، وكان مضماره في الكشف والابانة استعمالات العرب وشواهد أبياتهم، فابتنى الاصل اللغوي بكثير من أبعاده على الغريب والشكل والشوارد والأوابد في الألفاظ والكلمات والمشتقات، وقد سخرت بهذا اللغة العربية طاقاتها المتعددة لخدمة القرآن واستشهد بها على تقرير قاعدة، أو تقعيد نظرية، أو بناء أصل لغوي أو نحوي أو صرفي، فتبلورت في هذا السبيل عدة مسائل في الفروع والجزئيات والأصول والقواعد وعاد النص القرآني يقذف بإشعاعه حجة اثر حجة في سماء المعرفة اللغوية، وجلاء معاني الاستعمالات العربية.

قال أبو عبيدة (تـ : ٢١٠ هـ) : ("فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يسألوا عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه..".

لكن في عصر التابعين احتاج الناس إلى السؤال عن غريب لغة القرآن، ثم احتاجوا إلى إعرابه، وذلك بسبب عوامل ثلاثة :

١ - ضعف السليقة، وقد كان العرب قديما يربون أبناءهم في البادية حفاظا عليها.

٢ - اختلاط المسلمين العرب من الفاتحين بغيرهم من الأقوام عن طريق المصاهرة.

٣ - دخول عامة العجم إلى الإسلام وحاجتهم لمعرفة تعاليمه.

فظهرت بذلك الحاجة إلى البحث في لغة القرآن بسبب فشو اللحن، وفساد اللسان، واهتم المفسرون منذ عصر التابعين بإعراب القرآن، وحرصوا على ذلك قبل تقعيد علم النحو، لإدراكهم بأن الإعراب هو الذي يقيم المعنى، وفي آخر القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني اتسع مجال الاهتمام بلغة القرآن، وتنوعت العلوم التي تخدم هذه المادة، فظهر علم نقط القرآن وشكله، وعلم الوقف والابتداء، وعلم الغريب، وعلم لغات القرآن، وغيرها من العلوم.

وقبل أفول القرن الثاني الهجري ظهر في إطار الاتجاه اللغوي التأليف في :

- إعراب القرآن الكريم.

- غريب مفردات القرآن

- علم الوجوه والنظائر.

وحين ابتدأ عصر التصنيف اتجه المؤلفون في التفسير اللغوي إلى إفراد كل واحد من المناحي الثلاثة السالفة بالتأليف، تطور هذا الاتجاه في منحيين اثنين :

المنحى الأول : غلب عليه الاهتمام بمفردات القرآن، وما اتصل بها من بحث في الغريب والاشتقاق، والتصريف، والوجوه، والنظائر.

والمنحى الثاني : اتجه إلى الاهتمام بإعراب القرآن.

وسعى أهل اللغة حين صنفوا في التفسير إلى إبراز فروع علم اللغة التي نبغوا فيها من خلال تفاسيرهم، وقد وجد من المفسرين اللغويين من جنح إلى التصنيف الموسوعي الذي يهتم باستيعاب مختلف علوم اللغة، والاستفادة منها في فهم آيات القرآن. وقد درج التأليف في المفردات عند المفسرين اللغويين في منهجين :

- طائفة منهم تتبعت المفردات حسب ترتيب السور والآيات في المصحف، وعلى هذا المنهج سار جل اللغويين.

- وطائفة ثانية رتبت مفردات القرآن على حروف المعجم.

وقد اتجهت همة المفسرين عامة – وأهل اللغة منهم خاصة – على بحث مفردات ألفاظ القرآن، لأن تحصيل معانيها هي الخطوة الأولى لمعرفة مراد الله تعالى فيما أنزل على رسوله وأهم ما ألف في غريب القرآن على ترتيب المصحف :

- مجاز القرآن : لأبي عبيدة معمر بن المثنى / تـ :٢١٠ هـ

- معاني القرآن : لسعيد بن مسعدة البلخي المعروف بالأخفش الأوسط.

- تفسير غريب القرآن: لأبي محمد عبد الله المشهور بابن قتيبة / تـ : ٢٧٦ هـ.
- غريب القرآن وتفسيره : لابن المبارك اليزيدي / تـ : ٢٣٧ هـ
- معاني القرآن الكريم : لأبي جعفر النحاس / تـ:٣٣٨ .

وأهم ما ألف في غريب القرآن على ترتيب المعجم :

- تنوير القلوب : لأبي بكر محمد السجستاني / تـ:٣٣٠ هـ.
- مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني / تـ :٥٠٢.

المنحى الثاني : التفاسير اللغوية التي اهتمت بإعراب القرآن:

يطلق الإعراب ويراد به الإبانة والإيضاح عن الشيء...، ويصطلح بالإعراب على النحو، فهو الإبانة عن المعاني بالألفاظ. قال الزركشي :"والإعراب بيان المعنى، وهو الذي يميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين"( ).وقال أبو حيان فيما يجب على المفسر للقرآن :"معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النحو". ولفظة الأعراب وما أُشتق منها تدور معانيها حول الإبانة والإفصاح عن الشيء .